

مفهوم المهاد عند الفاروقي "أبعاده ودلالاته الحضارية"

خالد بنسكا

bensaga77@gmail.com

1/ الفاروقي المسار والمنهج: يعد الفاروقي من المفكرين السابقين لبحث ودراسة مجالات متعددة، فقد كتب رحمه الله في أسلمة المعرفة وفي مقارنة الأديان كما كان من الرواد في العمل على اعتشاف وعرض المنهجية الإسلامية. بالإضافة إلى أنه أول من قدم الحضارة العربية الإسلامية تقديماً موسوعياً بعيداً عن العرض التاريخي السردى، وذلك في الكتاب الذي سوف نتناول جزء منه في هذه الورقة. فمن هو الشهيد إسماعيل راجي الفاروقي وما هي المعالم التي طبعت شخصيته.

ولد الفاروقي بيافا في أكناف فلسطين سنة 1339 هـ (1921م)، وتلقى تعليمه الأولي هناك في مساجدها ومدارسها ثم التحق بكلية الفريرو القديس يوسف، حيث تعلم اللغة الفرنسية سنوات أمضاها في الجامعة الأميركية في بيروت، حصل فيها على درجة البكالوريوس في عام 1941، والتحق إثرها بالخدمة الحكومية. وقد أصبح حاكماً لمنطقة (الجليل) في سن لا يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر، كان ذلك سنة 1945 حيث لم يلبث كثيراً حتى عصفت الأحداث الدائرة بالمنطقة آنذاك بهذه التجربة خاصة مع نكبة 1948؛ إذ اضطر الفاروقي وعائلته على إثر نكبة فلسطين إلى اللجوء إلى لبنان. وعلى غرار العديد من الفلسطينيين، تحول الفاروقي صوب المجال الأكاديمي، لإعادة بناء حياته وعمله الوظيفي. وأصبحت الولايات المتحدة ميدان تعليمه، فقد أعد نفسه لذلك، عن طريق نيل شهادتي ماجستير من جامعتي إنديانا وهارفارد. ثم حصل في عام 1952 على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة إنديانا.

وبعد مدة تأقت همته العالية إلى النهل من العلوم الشرعية فانقطع لذلك في الأزهر الشريف لمدة أربع سنوات ما بين 54 و 58، ثم عاد بعد ذلك كاستاذ زائر بجامعة ماكجيل في كندا. وزميلاً في كلية اللاهوت في الجامعة نفسها، بين عامي 1959-1961. وتوافرت له في المعهد فرصة دراسة المسيحية واليهودية. ثم بدأ مسيرته المهنية أستاذاً للدراسات الإسلامية في المعهد المركزي للبحوث الإسلامية في كراتشي 1961-1963. وعاد في العام الذي يليه إلى أمريكا أستاذاً زائراً لتاريخ الأديان في جامعة شيكاغو. ثم حصل في عام 1964 على أول منصب بدوام كامل، للعمل أستاذاً مشاركاً في قسم الدين في (جامعة سيراكيوز). وانتقل أخيراً إلى (جامعة تمبل) في عام 1968، ليصبح أستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الأديان. وهو المنصب الذي احتفظ به حتى وفاته في عام 1986.

ومع هذا المسار العلمي التحصيلي الحافل، الذي ينم عن همة عظيمة كلما تعلقت بهدف لا يهتأ إلا بالوصول إليه والحصول عليه، عرف الفاروقي انتقالاً فكرياً مهماً حيث كان في بداياته كما هو شأن كثير من مجاليه يميل إلى الطرح القومي ثم ما لبث أن انتبه إلى أن الإسلام هو الذي أعطى لهذه المجتمعات، وإن كان لها لسان واحد، وحدة الوجهة.

2/ المنهج: تركزت اهتمامات الفاروقي المعرفية في ثلاث محاور كبرى هي: دراسة فلسفة الأديان، ونقد وتمحيص الأسس المعرفية التي تأسست عليها المعرفة الغربية حيث كان من السابقين لاثارة إشكالية التحيز كتوجه منهجي والذي واصله المرحوم عبد الوهاب المسيري جهود توضيحه واثرائه هو وثلة من الأساتذة الباحثين: على غرار منى أبو الفضل....، وأخيراً محاولة الإسهام في صياغة نظرية "إسلامية المعرفة"....

تهدف هذه الورقة إلى استجلاء مفهوم المهاد، أبعاده ودلالاته الحضارية، الذي افتتح به إسماعيل راجي الفاروقي وزوجه لمياء الفاروقي كتابهما اطلس الحضارة الإسلامية حيث استهل به القسم الأول الموسوم بالسياق، والذي ضم بالإضافة إلى المهاد فصلين آخرين هما: اللغة والتاريخ ثم الدين والحضارة.

وبما أن الفاروقي عرف بعمقه المنهجي نظراً لنهله من الثقافتين العربية والإسلامية والغربية الحديثة في مظاهرها، فإنه اعتمد المنهج الظاهراتي الذي تبناه هوسرل، في التعاطي مع الحضارة الإسلامية وعزاه في نفس الوقت إلى أبي الريحان التوحيدي معتبراً أنه أول من طبقها في كتابه عن الديانة الهندية، ويقضي هذا المنهج بالتعامل مع الظاهرة كما هي دون تدخل.

ووفاءً لهذا المنهج فإن استدعاء المهاد هنا له دلالة حضارية مهمة باعتباره دراسة لأصول الحضارة العربية الإسلامية حيث يمكن أن نتحدث عن عناصر هذا المهاد والتي يعتقد الفاروقي انه تتأسس عليها او بالأحرى تأسست عليها مفاهيم مفتاحية.

مفهوم الحضارة: ولكي يكتمل الفهم لا بد من استجلاء لمفهوم الحضارة عند الفاروقي حيث ينظر الى الحضارة والحضاري بوصفه أحد المفاهيم التي تولدت عن الطابع التوحيدي للمنظومة الفكرية والسلوكية، فالحضارة حسب تعريفه هي "العلاقة بين جوهر الإسلام وبين الظواهر التي رسخت وجوده في التاريخ" ونتاج تلك العلاقة المنتج الحضاري الإسلامي، والتوحيد هو جوهر الإسلام مثلما هو جوهر الحضارة، ويترتب على هذا الربط المفاهيمي أنه لا يمكن لإنسان كائناً ما كان أن يساوي بين التوحيد كمطلق غيبي وبين المنتج الحضاري التاريخي الموسوم بالنسبية وإمكانيات القصور¹.

التخلص من وهم النموذج المعرفي الغربي، وبناء الوعي بثافته لافتقاره إلى ثابت، بل تحويل ما حقه أن يكون متغيراً إلى ثابت، وما حقه أن يكون ثابتاً إلى متغير، في مقابل تميز البديل المعرفي الإسلامي بامتلاك نواة جامعة ناظمها التوحيد².

مركزية التوحيد في نظر الفاروقي وإبعاده: يتألف التوحيد -كما أسلفنا- من عدد من المبادئ كان لها أثرها في تحفيز الإنسان المسلم على الفعل الحضاري، فالقول بأن الله هو الخالق يترتب عليه نفي الصدفة والعبثية عن العالم كما يعني أيضاً نفي الخرافة التي يصفها الفاروقي بأنها عدوة العلم والممانعة من التحضر وإزالتها شرط لابد منه لتطور العلم ونشوء الحضارة.

والتوحيد أيضاً دعوة لاحترام العقل بل وتقديسه إذ هو الأداة الوحيدة التي يدرك بواسطتها المخلوق الخالق، ونصوص الوحي تزرع بدعوة الإنسان المسلم إلى إعمال العقل في نفسه وفي محيطه الاجتماعي- أي هي دعوة مستبطنة لتأسيس العلوم الإنسانية والاجتماعية- مثلما تدعوه للنظر في الظواهر الكونية واستنباط قوانينها أي أن يمضي قدماً باتجاه تطوير العلوم الطبيعية كما يستنتج الفاروقي.

وهذه الدعوة الإلهية هي دعوة أبدية ف"باب النظر والبحث في طبيعة الخلق أو في أي جزئية منه لا يمكن أن يغلق، وذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة فمهما عرفنا منها ومهما تعمقنا في هذه المعرفة فلا يزال هناك المزيد منها ليكتشف ويسخر"³ والتوحيد في أحد مضامينه يعني أن الإنسان لم يخلق عبثاً وإنما خلق من أجل غاية محددة هي عمارة الأرض التي جعلها الخالق سبحانه وتعالى مستجيبة للفعل الإنساني بموجب مبدأ التسخير، والإنسان بهذا المعنى مخلوق يمتلك مقدرة على البناء الخلاق، والعمل على إطلاق هذه المقدرة الإنسانية شرط أساسي لتشييد الحضارة. ويذهب الفاروقي إلى أن التوحيد وحده هو الذي استطاع أن يطور حضارة تقف موقفاً متوازناً من الإنسان ففي حين أن الحضارة الإغريقية قد طورت اتجاهها إنسانياً قوياً وصل إلى حد تأليه الإنسان فإن الحضارة المسيحية قد وقفت على النقيض منها فهبطت بمرتبة الإنسان عبر "الخطيئة الأصلية" حتى اعتبرته مخلوقاً هابطاً. أما الحضارة الإسلامية فهي وحدها التي احترمت إنسانية الإنسان دون تأليه أو تحقير.

وأخيراً يشير التوحيد إلى أن الإنسان سوف يحاسب على أعماله وأن عليه وهو يقوم بما هو مكلف به من عمارة الأرض أن يفعل ذلك في إطار من الضوابط الأخلاقية التي تكفل عدم نهب الطبيعة وحرمان الكائنات الأخرى من حقوقها المشروعة فيها، وهذا التشديد على الفعل الأخلاقي هو "الضمانة الأكيدة لإنتاج حضارة متوازنة قادرة على إصلاح ذاتها" حسبما يستنتج الفاروقي.

3/ مفهوم المهاد: تعتبر الأرض المشتركة الوعاء الجغرافي الذي وفر للسكان، الذين اختصوا بهذه الأرض من دون غيرهم، مجالا للتنقل من مكان الى مكان ومن نمط الى نمط (الترحال والاستقرار). فاستقروا زمنا طويلا حيث اسسوا تارة حواضر وممالك باهرة كتدمر وعدن والبتراء، وتنقلوا أخرى فعاشوا رحلا بين مناطق هذا الفضاء.

وبهذا فان مفهوم المهاد يحيل على تمازج الفضاءات الجغرافية والتاريخية والسكانية البشرية وما صاحب ذلك من تفاعل بين اللغة والثقافة والديانات في هذا الفضاء الجغرافي العربي. كل ذلك وفروعا لتلقي الإسلام كدين يبني حضارته على هذا المهاد.

إن هذا الوعاء الجغرافي لأرض العرب الذي يتكون من الجزيرة العربية والهلال الخصيب، بحيث يشكل كل جزء منهما استمرارا للآخر، يعرف بتنوع في التضاريس واختلاف في المناخ حيث ساهم هذا التنوع في الانتقال البشري من منطقة الى أخرى.

وبعد ذكر الخصائص الجغرافية لبلاد العرب انتقل الفاروقي إلى تحديد جنس وقبائل العرب، فهم ينتمون إلى الجنس القوقازي أو الآسيوي الغربي، أو ما يسمى بالعرق السامي، وهو يرفض هذه التسمية لأنها محض اختراع لا أساس له من الصحة، مصدرها العهد القديم ومبنية على افتراضات تاريخية، ومؤكداً أن هذه النظرة العرقية هي من ابتداع أوروبا الرومانسية، لأن شعوب الشرق الأدنى القديم (العرب) كانت تنظر إلى نفسها كشعوب في إطار اللغات التي تتكلمها، والأديان والثقافات التي تنتمي إليها أو النظام السياسي الذي تعيش في ظله، ولم يتبن هذه النظرة اقصد الاولى سوى العبرانيين. وقد أسهمت الرقعة الجغرافية التي يحتلها العرب في تكوين خصائصهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية. إذ كانوا يعيشون حياة الترحال والهجرة خصوصا من الجنوب، حيث الصحاري، إلى الشمال (الهلال الخصيب)، حيث الأراضي الزراعية الخصبة. كما حدثت هجرات عكسية من الأراضي الخصبة إلى الصحراء لدواعي منها الاضطهاد الديني (حالة ابراهيم عليه السلام) أو الكوارث الطبيعية.

ويشير ان كذلك إلى أن الحضارات العربية أثرت في البلاد المجاورة كما هو الحال بالنسبة لمصر التي نقلت إليها حضارة بلاد الرافدين الكتابة ومختلف العلوم مما ساعد على ارتفاعها حضاريا، وكما هو الشأن بالنسبة للفينيقيين الذين استغلوا خبرتهم البحرية في نشر الثقافة والحضارة العربيتين. ورغم الغزوات التي تعرضت لها المنطقة (خاصة بلاد الرافدين وبلاد الشام) من طرف أقوام هندوأوربية (كالحيثيين والكاشيين)، إلا أن ثقافتها القوية استدمجتهم ومنحتهم لغاتها ودياناتها... ولعل ذلك نفس ما وقع حتى لبعض الغزاة بعد الإسلام كالتتار والترك.

ومن الجدير بالذكر ان تلك المجتمعات استطاعت ان تدمج مختلف الاجناس والاقوام الذين تفاعلت معهم من زمن بعيد في منظومتها الدينية واللغوية.... هكذا يأخذ مفهوم المهاد طابعا حركيا فاعلا في تحديد الهوية الحضارية للامة العربية الإسلامية وتتجلى أهميته في كونه مهد للمظهر الاساس الذي طبع الحضارة العربية الإسلامية الا وهو جوهرها التوحيدي. ويمكن تبين هذا الجوهر التوحيدي من خلال القدرة العجيبة للحضارة العربية قبل الإسلام وبعده على دمج وصهر المكونات الثقافية واللغوية والدينية التي تتفاعل معها في فضائها، فتصنع بذلك وحدة في اللغة ولديانة وكذا المسلكيات.

4/ اللغة كعامل موحّد: لم يفث الفاروقي رحمه الله ان يعضد ما توصل اليه ابتداء بالانكباب على نتائج الابحاث اللغوية حيث وضح ان وشائج القرى بين اللغات (أكادية، آرامية، سريانية، عبرية، عربية...) التي عرفتها المنطقة تؤكد وحدة الفضاء العربي، غير أن جميع هذه اللغات اليوم في حكم المنقرضة باستثناء العربية التي لازالت تتمتع بحياة حقيقية بحيث يتكلمها أزيد من 150 مليوناً من الناس، ويستعملها مليار مسلم في جميع أنحاء العالم، على أن اللغة العربية كانت قد سادت شبه الجزيرة العربية حتى قبل نزول الوحي بسبب الهجرات.

واكد الفاروقي على التشابه الكبير بين بنية اللغة العربية وقربياتها السامية الاخرى على أن أول دخول للعرب إلى بلاد الرافدين السومرية، كان للأكاديين الغابرين الذين استطاعوا الاندماج مع السومريين، فضلا عن نشر لغتهم قبل ذلك بكثير. وقد استطاع الأكاديون بفضل التدفق المستمر للعرب على بلاد الرافدين، تشكيل دولة أكادية عالمية قوية (2360-2112 ق.م) وهي أول دولة عالمية عرفها التاريخ. كما أزاحت اللغة الأكادية، باعتبارها لغة الشعب الجديدة، اللغة السومرية، بحركة مثاقفة خلت من أي صراع عرقي أو تنافس حول السلطة.

ورغم الغزو الذي عرفته بلاد الرافدين، إلا أنها استمرت في المسار الثقافي والديني واللغوي الذي شرعته الدولة الأكادية. وبعد ضعف الأكاديين في شرق الهلال الخصيب، كان العموريون العرب غرب الفرات قد استقوا بفضل الهجرات المتلاحقة للعرب من الجنوب، واستطاعوا بناء دولة عالمية أكثر اتساعاً من الأكاديين، إلا أنهم شكلوا نوعاً من الاستمرار للثقافة الأكادية فنشروا لغتها وأدبها وفنون عمارتها...

وقد قاومت التركيبة الدينية والحضارية للعرب فكرة تأليه الزعماء السياسيين رغم العظمة التي بلغوها، عكس ما كان يحدث في مناطق أخرى من العالم، فكان الحاكم يحكم باسم الإله وينفذ شريعته.

وابتداء من القرن الثالث عشر من الميلاد اكتسح الآراميون العرب المنطقة، لتنتشر اللغة والثقافة الوليدة عن اللغة والثقافة الأكادية بين جيرانهم. وقد عرفت المنطقة قبل ذلك ظهور مملكة آشور (في القرن 14 ق.م) التي استطاعت إخضاع مصر لسلطانها وظلت مسيطرة على المنطقة إلى أن سقطت تحت ضربات الدولة البابلية الثانية في القرن السابع قبل الميلاد، هذه الدولة التي لم تستمر طويلاً بسبب الغزو الفارسي.

ولم يفت الفاروقي في هذا الفصل أن يشير إلى تاريخ العبرانيين الذين تنقلوا، حسب، بين مناطق شتى من البلاد العربية، وتميزوا بخاصية عدم الاندماج والسعي إلى المحافظة على النقاء العرقي، وهو ما كان صعباً إن لم يكن مستحيلاً خصوصاً بعد السبي البابلي.

5/ الدين وبناء الحضارة: يبدأ الفاروقي بذكر ملاحظات منهجية حول دراسة الديانات القديمة ببلاد ما بين النهرين لينتقل بعدها إلى تحديد خصائصها: كمبدأ الازدواجية الوجودية (التمييز بين الخصائص الإلهية الخالقة وبين الخصائص الطبيعية المخلوقة)؛ أو مبدأ قدرة البشر على إدراك وفهم ما توحى به الإرادة الإلهية.

ولقد كان الدين هو الوازع الأسى لجميع سكان بلاد الرافدين، فكان الخضوع للإله يعني الخضوع لما يجب أن يكون، وكانت لهم رؤية خاصة عن الكون والحياة والمجتمع والإنسان، رؤية جعلت كبير الآلهة هو الإله الأوحى الذي لا يتصف أحد بصفاته، والذي يستحق الحمد والعبادة دون غيره، وهي رؤية أشبه ما تكون بالرؤية التوحيدية حسب الكاتب.

أما في ما يخص ديانة جزيرة العرب فقد استمروا على ما ألفوه من أشكال ديانات الشرق القديمة في بلاد ما بين النهرين، وإلى جانب ذلك حافظت الديانة الإبراهيمية على نفسها في انتظار بعث الأنبياء ليثبتوها.

وبخصوص انتشار الديانة اليهودية في أرض العرب، فقد كانت تحول دونه خصوصية التعصب العرقي للعبرانيين، بالإضافة إلى مبدأ التوحيد اليهودي الذي غالوا فيه لدرجة اعتبارهم الله الواحد أبا لهم. ومن بعد موسى عليه السلام عرفت اليهودية انفتاحاً نسبياً ما جعلها تنتشر في مناطق من أرض العرب.

وبعد دخول العبرانيين في فترة السبي البابلي ظهرت لديهم فكرة الخلاص اليهودية (مع مملكة داوود) ثم الإنسانية بعد ذلك، وهي البذرة التي نبتت منها المسيحية حسب الفاروقي. لكن ما يثبته الكاتب هو أن اليهود لم يشكلوا قط قبائل مستقلة بل كان عليهم العيش دائماً في رعاية القبائل العربية. وقد اكتسب اليهود سمعة سيئة في المنطقة لحثهم على الاضطهاد الديني ورؤيتهم العرقية العصبية.

ثم جاءت المسيحية كدين لإصلاح الأخطاء التي قام بها اليهود، وذلك بمحاربة التعصب العرقي والتأكيد على المساواة الإنسانية... وقد ووجهت الدعوة المسيحية في البداية بنوع من الرفض والاضطهاد إلى أن اعتنقها بولس الذي أدخل عليها تغييرات كبيرة لتوافق الثقافة الهلينية السائدة، فبدأت تنتشر إذ ذاك في المراكز المدنية الرئيسية من الإمبراطورية الرومانية، ثم توالى التغييرات التي طرأت على المسيحية فظهرت أنواع عديدة منها، إلى أن سادت كنيسة روما وفرضت آراءها ومعتقداتها (عقيدة التثليث وأفكار الخطيئة...) على أغلب الكنائس بقوة السلطة. لكن المسيحيين ذوي الميول السامية لم يستطيعوا تقبل ذلك، وظلوا محافظين على أفكارهم القديمة رغم ولائهم الظاهر لكنيسة روما. ولعل مجيء الإسلام وتأكيدُه لنبوة عيسى وطبيعته البشرية كان سبباً في اعتناق هؤلاء المسيحيين في المنطقة للإسلام.

خلاصة : من خلال ما ذكر يمكن ان نستخلص بأن المهاد لدى الفاروقي هو بالأساس الفضاء الجغرافي والبشري الذي احتضن العرب، وتعتبر الفصول التابعة لفصل المهاد مكملة له ومتممة لمعناه حيث استعرض فيها التاريخ المشترك واللغة الموحدة كما لم يفته الحديث عن الدين والحضارة. وبناء عليه يمكن ان نقول بان هذه التسمية عند الفاروقي هي بمثابة الأساس الصلب للفضاء في عومه بما هو ارض وبشر أساسا.. ويمكننا القول ان المهاد يتكون في كليته من:

- الأرض بخصائصها الجغرافية ومواردها المتنوعة والمتباينة نظرا لامتدادها. وهنا يمكن ان نطرح سؤال الامتداد الغربي لهذا الفضاء تجاه الشمال الافريقي.
- البشر بأجناسهم وأصولهم المختلفة ولكن المنصهرة والمتكاملة.
- الإسلام بما هو دين ومسلكتيات ونظام للحياة.
- اللغة الواحدة والثقافة الموحدة، رغم وجود لغات أخرى وثقافات فرعية.

[]

¹ إسماعيل راجي الفاروقي ولؤيز الفاروقي: *أطلس الحضارة الإسلامية* (ب.م: ب.ن، ب.ط، ب.ت) ص 27.

² عمر السيد: "صوب معايرة معرفية لمفهوم التحيز الثقافي من فكر المسيحي ومنى أبو الفضل"، مؤتمر الثقافة ودراسات الشرق الأوسط، ج 2، ص 29.